القديس

غريغوريوس أسقف نيصص

ST. GREGORY OF NYSSA

القمص تادرس يعقوب ملطى

اهداءات ٢٠٠٢

القمص/ تادرس يعقوب مالطى

كنيسة مارى جرجس

الكلية الاكليركية
بالإسكندرية

القديس

غريغوريوس أسقف نيصص

ST. GREGORY OF NYSSA

حياته - كتاباته - منهجه وأفكاره

١٩٩٢

الكتاب الأول

حياته

القمص تادرس يعقوب ملطى
كنيسة الشهيد مارجرجس باسبورتنج



قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية (١١٧)

الآباء الكبادوك

ظهر الآباء الكبادوك فى منتصف القرن الرابع بعد مرور حوالى نصف قرن على مجمع نيقية، وبعد ان مرت فترة عصيبة فى الكنيسة بسبب الأريوسية الناكرة للاهوت السيد المسيح ومساواته للآب فى ذات الجوهر، وكان البطل الحقيقى هو البابا الإسكندرى أثناسيوس الذى نُفى خمس مرات قبل نياحتة .الآن استقرت الكنيسة الجامعة على رفض مجمع نيقية للأريوسية. لقد وضعت الإسكندرية الأساسات اللاهوتية الثابتة، وجاء الآباء الكبادوك كمهندسين معماريين يقدمون مبنى المصطلحات اللاهوتية الخاصة بالإيمان الثالوثى المستقر فى الكنيسة الجامعة .

الآباء الكبادوك الثلاثة

أنجبت ولاية كبادوكية فى آسيا الصغرى (تركيا حاليًا) جيلاً واحدًا من الآباء العظماء، كان له أثره الفعّال على الفكر اللاهوتى المسيحى. هؤلاء الآباء العظماء هم القديسون باسيليوس الكبير أسقف قيصرية وصديقة غريغوريوس النزينزى وأخوه غريغوريوس أسقف نيصص.

يُعتبر الثلاثة تلاميذ للعلامة أوريجانوس والقديس أثناسيوس الرسولى[١].

جاءت كتاباتهم اللاهوتية امتدادًا للفكر الأثناسيوسى، بعد أن استقر اللاهوت من جهة مفاهيم المصطلحات اللاهوتية الخاصة بالإيمان الثالوثى.

مع ارتباط الآباء الثلاثة الكبادوك الوثيق ببعضهم البعض فى الفكر والروح، ومع قيام صداقة حميمة بينهم دامت مدى الحياة،إلا أن كلاً منهم

حمل طابعًا خاصًا في شخصيته. فعُرف القديس باسيليوس الكبير أنه رجل العمل والمشّرع الرهباني، بينما عُرف القديس غريغوريوس النزينزى بسيد الشعر والبلاغة الجذّاب في كرازته، أما القديس غريغوريوس أسقف نيصص فيُعتبر **المفكر اللاهوتي** البارع والذى اتسم بالفكر الميتافريقى (ما وراء الطبيعة) والقدرة على تقديم اللاهوت، خاصة فى شرح الثالوث القدوس والتمييز بين الجوهر والأقنوم، والتجسد الإلهى، كما كان قديرًا فى تفسيره الرمزى الروحى[٢].

الجو الدينى المعاصر

يكشف لنا القديس غريغوريوس أسقف نيصص فى إحدى مقالاته عن الجو الدينى فى منطقته، أو قل جو العالم المسيحى فى منطقة البحر الأبيض المتوسط، قائلا إن العلمانيين كانوا مشغولين بالحوار اللاهوتى خاصة مع الأريوسيين. إن ذهبت إلى صراف يحدثك عن "المولود" و"غير مولود"؛ وإن سألت خبازًا عن ثمن الخبز أجابك أن الآب أعظم من الابن[٣]... لقد اقتنع الكل أن العالم غير المنظور الذى يتعامل مع اللاهوتيات هو بالحقيقة العالم الحق الذى يلزم الانشغال به خلال الحياة اليومية.

بمعنى آخر كان الحديث فى اللاهوتيات سائدًا بين العلمانيين كما يسود الآن الحديث عن مباريات الرياضية والسياسية.

الآباء الكبادوك والإيمان الثالوثى

واجه البابا أثناسيوس البدعة الأريوسية فاهتم جدًا بتأكيد لاهوت السيد المسيح ومساواته للآب فى ذات الجوهر الواحد، وتوضيح العلاقة بين الآب والابن. إنه لم يتجاهل الأقنوم الثالث، فقد دافع عن لاهوت

الروح القدس خاصة فى رسائله إلى الأسقف صرابيون... وتحدث بقوة عن الثالوث القدوس. لكن واضح أن غالبية جهده كان مركزًا ضد الفكر الأريوسى الذى انشغل باختلاف الجوهر بين الآب والابن[٤].

فى منتصف القرن الرابع تغيَّر الوضع تمامًا، فقد مات آريوس وصارع الأريوسيون ضد الإيمان الحق، لكن الكنيسة قد استقرت فى إيمانها، وصارت الحاجة بالأكثر إلى وضع صيَّغ لاهوتية تعبر عن الفكر الإنجيلى الكنسى الثالوثى لاستخدامها فى العبادة.

فى هذا الجو الجديد ظهر الآباء الكبادوك الثلاثة. إنهم لم يصارعوا مع آريوس الذى مات منذ زمن طويل، لكنهم واجهوا بعض الأريوسيين المتأخرين مثل أنوميوس[٥] Eunomius ومقاومى الروح Pneumatomachi مثل أوستاثيوس [٦] Eustathius السبسطائى. لكن وضعهم يختلف تمامًا عن وضع البابا أثناسيوس، لأن دور الأخير لم يكن منصبًا على مقاومة أريوس وأتباعه فحسب إنما توضيح الإيمان لجسم الكنيسة الجامعة. أما الكبادوك فواجهوا تيار الهراطقة وقد رفضتهم الكنيسة... كان الكل يشعرون أنهم خارج الحياة الكنسية.

1. Stanley M. Burgess: The Spirit and the Church: Antiquity, 1984, P.132.

2. Quasten: Patrology, vol. 3, P.203-4; Hilda C. Graff: St. Gregory of Nyssa, vol. 18, P.3 Ancient Christian Writings.

3. Cf. De deitate Filli. PG 46:557.

4. Maurice Wiles: The Christian Fathers, SCM 1977, P. 44.

٥- أنوميوس مات سنة ٣٩٤م: من أصل كبادوكى، سيم أسقفًا على Cyzicus فى مسيا Mysia. أريوسى المعتقد، تتلخص عقائده فى الآتى:

أ- الابن ليس مولودًا من الآب وواحدًا معه فى الجوهر، إنما جبله الآب مباشرة وأعطاه قوة الخلق، بها صار مشابهًا له.

ب- احتل الروح القدس المركز الأول بين الكائنات التى خلقها الابن، وهو أداته فى تقديس النفوس.

جـ- تقوم التقوى لا على الابتهال إلى الأسماء المقدسة، ولا باستخدم الطقوس والرموز، وإنما فى دقة التعليم الذى يتجاهل الأسرار الكنسية والممارسات النسكية.

لم تدم تعاليمه كثيرًا، فسرعان ما نُسيت... بقيت أهميتها فيما كتبه الآباء الكبادوك عن الثالوث القدوس خلال نقدهم لتعاليمه

Cross: Oxford Dict. of the Christian Church, 1974, P. 480.

٦. أوستاثيوس (حوالى ٣٠٠- حوالى ٣٧٧م): أسقف سبسطية فى بنطس منذ حوالى سنة ٣٥٧. كان فى شبابه تلميذًا لأريوس. كان اهتمامه الرئيسى منصبًا على الحركة الرهبانية، فى تنظيمه الذى احتل مركزًا هامًا بالنسبة له. خلال هذا الاهتمام يبدو أنه قد تأثر بالقديس باسيليوس الكبير ودخل معه فى صداقة حميمة عند تأسيسه نظام رهبنته ولكن إلى حين.

دافع عن تعليم الشبه homoiousion بين الآب والابن، وفـى أيامـه الأخـيرة صـار القـائد الروحـى فـى آسـيا الصـغرى

للهرطقة المقدونية أو لمقاومى الروح القدس.Ibid 483

القديس

غريغوريوس أسقف نيصص

أحد الآباء العظام، دعاه القديس غريغوريوس النزيانزي : "عمود الكنيسة كلها"، ولقبه الأب مكسيموس المعترف : "معلم المسكونة"،كما دُعى "أب الآباء"، و "كوكب نيصص[١]".

نشأته

وُلد من أبوين مسيحيين تقيين غنيين وذا صيت، فى مدينة قيصرية الكبادوك، يُسميان ان باسيليوس وإميليا. وكان باسيليوس هذا محامٍ وخطيب، ذا مركز سامٍ فى المجتمع، له خمسة أبناء وخمس بنات، وكان أكبرهم القديس باسيليوس الكبير أسقف قيصرية، يحمل إسم أبيه.

وُلد أصغر الأبناء حوالى سنة ٣٢٩ أو ٣٣٠م، لذا غالبًا ما وُلد غريغوريوس "الابن الثالث" حوالى سنة ٣٣٥ أو ٣٣٦م، وكان باسيليوس يكبره كثيرًا فى السن، إذ كان غريغوريوس يتحدث معه كابن مع أبيه أو تلميذ مع معلمه، ويتطلع إليه وإلى أخته ماكرينا بكل وقار وتكريم.

من بين إخوته بطرس أسقف سبسطية، وأيضا القديسة ماكرينا التى وكان لها دورها الفعّال فى حياة إخوتها بما تمتعت به من مواهب فكرية وتقوية ونسكية خُطبت هذه الفتاة العجيبة فى سن مبكر، وأصُيب خطيبها بحمي فمات. وضعت فى قلبها أن تصير عروسًا للسيد المسيح، فكرّست حياتها للعبادة وتربية إخوتها. اشتركت مع والدتها أميليا فى اقامة جماعة ديرية نسائية فى ممتلكاتهما ببنطس فى منطقة أنسيس Annesis على ضفاف نهر Iris. اقتفى أخوها باسيليوس أثرها، وكرّس حياته مثلها، وصار متوحدًا فى نفس المنطقة. اجتذب إليه صديقه غريغوريوس

النزينزى، وعكفا على العبادة ودراسة كتابات أوريجانوس، وأصدرا مقتطفات له تحت اسم "الفيلوكاتيا [1]"، كما أقاما ديرًا.

فى أيام الاضطهاد الذى أثاره دقليديانوس Diocletian Persecution هرب أجداده إلى منطقة بُنطس Pontus الجبلية لأجل الأمان، وقد عانوا متاعب كثيرة. وقد قيل إن جده من أمه قد استشهد وفقد ممتلكاته. لكن بعد سنوات قليلة يبدو أن العائلة عادت إلى العاصمة "قيصرية الكبادوك" أو فى "قيصرية الجديدة" فى بنطس واستقرت هناك.

مات والده باسيليوس فى سن صغير، تاركًا أبناءه وبناته تحت رعاية جدتهم ماكرينا وأمهم إميليا. وقد عُرفت الجدة والأم بحياتهما المسيحية الملتهبة بالروح والتقوية. وقد ساهمت معهما الابنة ماكرينا الحاملة اسم جدتها فى تربية وتعليم إخوتها، وقد دعيت ملاك الأسرة[2].

لم يكن غريغوريوس ميالاً إلى الحياة الدينية؛ طلبت منه والدته أن يشترك مع الأسرة فى احتفالها بعيد شهداء سبسطية الأربعين، إذ كانت قد بنت كنيسة على رفاتهم، لكنه لم يرد الحضور، وتحت الإلحاح ذهب على مضض. إذ نام فى الاحتفال رأى بستانًا جميلاً أراد دخوله فمنعه الأربعون شهيدًا، عندئذ استيقظ من نومه نادمًا على ما فرط منه، وقرر أن يمارس الإيمان المسيحى طالبًا صلوات هؤلاء الشهداء.

دراسته

بلاَ شك أن ما بلغ إليه القديس غريغوريوس من حياة تقوية وعلم ومعرفة وشهرة مدين به إلى أسرته العجيبة من الجانب النسائى فإنه مثل القديس تيموثاوس الذى كان مدينًا لجدته لوئيس وأمه افنيكى اللتين أنشأتاه بين أحضان الكتاب المقدس (٢ تى٣:١٥). لقد تربى غريغوريوس على أيدى نساء تقيات: جدته وأمه وأخته، لكل منهن بصمات التقوى والورع قد

انطبعت على حياته. نستطيع أن نقول إن قليلين خطوا بما ناله غريغوريوس من بركة الدفء الأسرى العجيب، الذى ألهب فيه حب اللّه، وقدم له صورة واقعية حيّة عن السماء ولغتها: لغة الحب والعبادة المفرحة التقوية!

يبدو أنه لم يُنفق عليه كثيرًا فى تعليمه مثل أخيه الأكبر القديس باسيليوس. فإننا لم نسمع قط أنه التحق بجامعات أجنبية، وقد اعترف بنفسه أنه لم يتتلمذ على أيدى معلمين مشهورين[٣]. وإنما كثيرًا ما كان يكرر الإشارة إلى معلم واحد هو باسيليوس، الذى امتدحه كثيرًا، وحسبه "أعجوبة العالم كله"، والمثل الأعلى للفيلسوف الحقيقى[٤]. وضعه مع القديسين واعتبر كتاباته مُوحى بها. يقول عنه إنه "بالحقيقة خُلق حسب إرادة اللّه، وتشكلت نفسه على صورة الخالق[٥]". من يقرأ كتاباته يشعر أنه يعتمد على باسيليوس حتى ولو لم يشر إليه بالاسم[٦].

كمثال فى كتابه Hexameron يذكر أن كل ما ورد فى عمله هذا من أمور مدهشة هو وضع من أخيه باسيليوس، وأما الأمور الأقل فهى من عمله هو كتلميذ. وفى بدء حياته كتب رسالة إلى ليبانيوس Libanius قال فيها إنه قد تمتع بالحياة مع الجماعة التى لأخيه باسيليوس إلى حين، وأن ما يكتبه فى الواقع هو من صنع أخيه[٧].

كان منذ صباه مولعًا بالدراسة، لكنه كان خجولاً ضعيف البنية[٨].

اهتمامه بالعلم الزمنى

أراد فى البداية و أن يكون كاهنًا مثل أخيه القديس باسيليوس، وقد صار بالفعل فى صباه واعظًا lector لكنه لم يشعر بأن هذا العمل يناسب شخصيته وميوله فتركه. وكما أعلن القديس غريغوريوس النزينزى بغضب فى رسالة له إنه قد سمح لنفسه أن يستبدل الكتب المقدسة بكتب

العالم المُرة والبغيضة، وقَبِلَ أن يُدعى "خطيبًا أكثر منه مسيحيًا[٩]". لقد صار يمارس حياته الزمنية العالمية كخطيب أو كمدرس للبلاغة rhetor ،يطلب المجد الزمنى.

زواجه

يبدوا أنه قد تزوج، كما يظهر ذلك من مقاله عن البتولية، إذ نجده يتأسف أنه لم ينل مجد هذه الفضيلة[١٠]. غير أن البتولية فى فكره ليست امتناعًا عن الزواج، ولا مجرد طهارة للجسد، وإنما هى نقاوة تشمل الحياة كلها: بتولية الجسد والنفس والفكر والأحاسيس.

فى خطاب صديقه القديس غريغوريوس النزينزى[١١] جاء الحديث عن ثيؤسيبيا Theosebia فى عبارات تُظهر بقوة أنها زوجة غريغوريوس أخى باسيليوس الكبير، وإن كان البعض يرى أنها مجرد شمّاسة؛ عُرفت بفكرها الراجح ومحبوبة جدًا.

مدحها القديس غريغوريوس أسقف نيصص فيما بعد حتى عندما كتب عن البتولية، ودعاها القديس غريغوريوس النزينزى صديقته القديسة وأخته الطوباوية، بل وعند نياحتها رثاها، قائلاً: "فخر الكنيسة وبركة جيلنا"... هكذا كان ينظر إليها القديس بإجلال وإكرام.

جاء فى مقالة عن البتولية:

"يبدو أن روعة البتولية عديمة الفائدة وبلا جدوى بالنسبة لى، وشبهى كشبه القمح للثور المكمم الذى يدرسه، أو كالماء الذى ينبع من هوة سحيقة لإنسان عطشان ولا يقدر أن يصل إليه.

ربما توجد فرصة لمن لايزال لهم حرية الاختيار للطريق الأفضل، ولم ينغمسوا بعد فى اهتمامات الحياة الدينيوية، بخلافنا نحن الذين بعُدنا عن البتولية المجيدة. لأنه لا يقدر أن يتسلق على جبال البتولية من وضع

قدمه مرة فـي الحياة العالميـة وتـزوج. ومـا نحـن إلا نـاظرون أى غبطـة آخرين، أو شهود على سعادة فئة لا ننتسب إليها. لأننا فى عرضنا لبعـض الأفكار عن البتولية لانكون أسعد حالاً من الطباخين وخدام موائد الطعـام الذين يحضرون مالذ وطاب لموائد الأغنياء دون أن يكون لهم أى نصيـب فى الموائد التى أعدوها...

نحن نشبه أولئك الذين يقارنون فقرهم بثراء الأغنياء...[١٢]"

رهبنته

بعد أن قطع غريغوريوس شوطًا كبيرًا فى البلاغة والأدب، طموحًـا نحو مراكز هذا العالم وشهرته كان صديقه القديس غريغوريوس النزينزى يحثه على تكريس حياته للعبادة والخدمة الإلهيـة كأخيـه باسيليوس وأختـه ماكرينا، فتأثر جدًا بكلماته.

يبدو أن غريغوريوس سيم كاهنًا، وأن زوجته بقيت معه فى الخدمـة يسلكان كأخ وأخت، إذ فى مدح القديس غريغوريوس النزينزى لها تحـدث عن تقواها وتكريس حياتها للأعمال الصالحة، فاستحقت أن تُدعى "زوجـة كاهن" وكما قال عنها "ثاؤسيبياه his Theosebia ، حاسبًا أن علاقتهـا بزوجها علاقة روحية أكثر منها طبيعية، خاصـة وأننـا لـم نسمع أنهـا قـد أنجبت أطفالاً[١٣].

يرى البعض أنها انضمت إلى القديسـة ماكرينـا فـى ديرهـا، عاشـت حتى بعد رسامة زوجها أسقفًا.

انطلق القديس غريغوريوس المتزوج ولكن بقلب ملتهب بالبتولية إلى فلسطين ومصر لزيارة الآباء الرهبان والنساك المتوحدين، والتحـق بـالدير الـذى أسسـه أخـوه القديـس باسيليوس فـى بُنطـس Pontus علـى نهـر Iris بجوار أناسيس Annesi حيث وُجد دير الراهبات تحت قيادة أخته ماكرينا.

استراحت نفسه تمامًا، وتحول طموحه للمجد الزمني والمعرفة الزمنية إلى شوق شديد إلى الحياة الرهبانية الهادئة النسكية ودراسة الكتاب المقدس وتفاسيره، وتتلمذ إلى سنوات على كتب العلامة أوريجانوس.

كانت الحياة الرهبانية تناسب مواهبه وقدراته وأيضًا شخصيته. فمن ناحية لم يكن له أصدقاء كثيرون خارج أقربائه الملتصقين به. خطاباته المعروفة صمتت عن أن تذكر الكثير عن أصدقائه. لقد مارس حياة الرهبنة منشغلاً بدراسة اللاهوت والفلسفة[١٤].

لقد بقي القديس غريغوريوس على اتصال دائم بالرهبنة (حتى بعد أسقفيته) ويبدو أنه كان يقيم في الدير من حين إلى آخر.

كانت أخته الكبرى ماكرينا رئيسة دير للراهبات هناك، وكان ملتصقًا بها جدًا. لقد دعاها "معلمته"، وخصص كتابًا سجل فيه حياتها، وخاصة ساعة نياحتها حيث كان حاضرًا معها. فيما بعد كتب حوارًا على شاكلة Phaedo لأفلاطون، يحوى حوارًا "عن النفس والقيامة"، مظهرًا أن هذا الحوار قد تم بينه وبين أخته فى لحظاتها الأخيرة على الأرض[١٥]، كما سنرى بأكثر توسع.

أسقفيته

فى عام ٣٧٠م سيم القديس باسيليوس الكبير أسقفًا على قيصرية الكبادوك، ولما كان الامبراطور فالنس الأريوسى قد بدأ يشن حملة اضطهاد ضد السالكين حسب إيمان مجمع نيقية أراد القديس باسيليوس أن يحيط نفسه بمجموعة من الأساقفة المستقيمى الرأى، فأنشأ أسقفيات جديدة قدر المستطاع. سام أخاه غريغوريوس أسقفًا على نيصص. بعد قليل سام القديس غريغوريوس النزينزى أسقفًا على ساسيما Sasima، جنوب قيصرية، على الطريق إلى كيليكيا Cilicia.

بذل القديس غريغوريوس النزينزى كل الجهد لعدم قبول الأسقفية، لكن صديقه أصر أن يضع يده عليه بغير إرادته. لقد نجح فى سيامته أسقفًا لكنه لم يقدر أن يلزمه بالقيام بأعمال الأسقفية فى ساسيما. قيل إنه لم يُقم هناك قداسًا واحدًا، ولاسام كاهنًا واحدًا. كانت المنطقة خربة تمامًا، لا يوجد فيها ماء ولا زراعة، كل ما فيها هو التراب وضجيج العربات العابرة هناك على الدوام. أما سكانها فكانوا مجموعة من المتشردين والغرباء والجلادين مع من حُكم عليهم بالأعدام مربوطين فى قيود، يصرخون ويتأوهون. وقد سببت هذه الإيبارشية الكئيبة متاعب كثيرة للقديس غريغوريوس[16].

فى خريف سنة ٣٧١م قبل غريغوريس بغير إرادته الأسقفية على إيبارشية نيصص، وهى مدينة صغيرة مجهولة تبعد حوالى عشرة أميال غرب العاصمة، قيصرية الكبادوك.

كما نعلم من إحدى رسائل القديس باسيليوس[17] أن أخاه لم يكن يرغب فى استبدال حياته الرهبانية المكرسة للدراسة والتأمل فى هدوء وسلام بالتزامات الأسقفية الضخمة.

كانت المدينة مجهولة حتى أن صديقهما يوسابيوس الساموساطى كتب إلى القديس باسيليوس يعاتبه لأنه يدفن شخصًا مشهورًا فى إيبارشية مجهولة. فأجابه القديس انه لم يفعل ذلك بسبب نقص فى إمكانيات أخيه أو لعدم استحقاقه، فإنه يستحق أن يتسلم خدمة الكنيسة كلها مجتمعة معًا، وإنما ستنال الإيبارشية شهرة بأسقفها لا الأسقف بإيبارشيته[18]. وبالفعل تحققت نبوته هذه واشتهرت نيصص بسبب أسقفها.

بالرغم من قبوله الأسقفية بغير إرادته إلا أنه لم يتضايق من أخيه القديس باسيليوس كما فعل القديس غريغوريس النزينزى؛ بل ذهب بالفعل إلى نيصص، وبقى هناك.

لم يكن مُوفقًا فى عمله الأسقفى، وقد انتقده أخوه على عدم حزمه فى معاملاته مع الناس وفى تدبير الأمور المالية، وحسبه عاجزًا عن التصرف بما يناسب السياسات الكنسية[19].

يرى البعض أنه لم يُعَّد غريغوريوس ليكون أسقفًا بل مفكرًا وفيلسوفًا؛ كانت له العين الفاحصة المدققة، ووُهب وزنة غير عادية فى نظام تفكيره[20].. كأنه قد خُلق ليكون لاهوتيًا أكثر منه أسقفًا.

ربما فى بداية أسقفيته حدث خلاف بين باسيليوس وعمه (أو خاله) غريغوريوس أحد الأسلقفة الكبادوك. وبنية صادقة وبساطة شديدة حاول غريغوريوس أسقف نيصص أن يصالحهما فسقط فى خطأ غير لائق به كمسيحى. لقد بذل كل جهد للمصالحة، وإذ فشلت كل مجهوداته زوَّر رسالة كما لو كانت من عمه، وجهها إلى أخيه، فيها يعلن عن شوقه الشديد نحو المصالحة. لكن الأمر انكشف فاتسع الخلاف بالأكثر، وسقط غريغوريوس فى حرج شديد موبخه أخوه بعنف. على أى الأحوال، إن كان قد أخطأ بتزويره الرسالة، لكن من أجل محبته الشديدة للسلام، وبصلواته تحققت المصالحة فيما بعد.

نفيه

لم تكن الأسقفية بالنسبة له طريقًا مفروشًا بالورود، بل بالعكس كانت سلسلة لا تنقطع من المتاعب والاضطهادات. قلنا إنه بطبيعته الهادئة كان يميل إلى حياة الرهبنة والدراسة، فكان عميقًا فى دراسته اللاهوتية، خاصة عن الثالوث القدوس. لهذا بدأ فى أسقفيته يقدم دراسته فى هدوء وبعمق الأمر الذى أثار الأريوسيين وأتباع سابليون[21]. لقد أدركوا خطورته اللاهوتية على بدعهم وسط هدوءه والذى يجتذب الكثيرين؛ فبعلمه اللاهوتى وتقواه يحطم فساد معتقداتهم.

من جانب آخر واجه القديس مقاومة عنيفة منهم (من قادة كنسيين شبه أريوسيين Semi-Arians) كنوع من الإنتقام من باسيليوس[٢١].

حاول الإمبراطور الأريوسى فالنس Valens التخلص من الأساقفة المخلصين لمجمع نيقية.

فى نهاية عام ٣٧٥ عُقد مجمع فى أنقرة Ancyra من الأساقفة الأريوسيين، موجهين اتهامين رئيسيين ضد القديس غريغوريس:

١- بطلان سيامته لأنها تخالف القوانين الكنسية.

٢- بدد أموال الكنيسة التى تركها سلفه، هذا الاتهام وجهه شخص يُدعى فيلوخاريس Philocharis.

أُرسلت فرقة من الجند للقبض عليه واقتياده إلى موضع المحاكمة. فى الطريق حلت به قشعريرة شديدة، وشعر بآلام مرض حاد، فطلب من الجند أن يسمحوا له بالعلاج، لكنهم صموا آذانهم عن طلبه، وعاملوه بشئ من القسوة، وكانوا يسرعون به.

بطريقة غامضة هرب من بين أيديهم بالرغم من مراقبتهم له بحرص، واختفى فى موضع للعلاج.

جمع القديس باسيليوس مجمعًا من الأساقفة الكبادوك الأرثوذكس، وباسم المجمع بعث برسالة جريئة ووقورة إلى ديموسثينيس Demosthenes، يعتذر فيها عن عدم حضور غريغوريوس أمام المجمع، مظهرًا بطلان الاتهامات الموجهة ضده أما بخصوص بطلان سيامته، فيجب ألا يُوجه إليه الإتهام بل إلى من ساموه، فإنهم هم المسئولون عن سيامته. كما كتب رسالة لحساب أخيه وجهها إلى شخص له تقديره يدعى أستورغوس Astorgus يرجوه التدخل ليخلصه من مأساة محاكمته أمام القضاء[٢٣].

بعدم ظهور القديس غريغوريوس لم يحقق المجمع هدفه. يبدو أن الرسالة أيضًا لم تحقق هدفها فقد أقيم مجمع آخر بأمر ديموسيثنيس Demosthenes وذلك خلال تحرك قوى من جانب إيوستاثيوس أسقف سبسطية Eustathius of Sebaste، لكن رفض القديس الظهور أمامه.

فى سنة ٣٧٦م عُقد مجمع فى نيصص بواسطة أساقفة أريوسيين، وعُزل القديس من إيبارشيته في غيبته، بأمر الإمبراطور

هرب القديس من إيبارشيته، فى موضع غير معروف. لكنه من الأكيد لم يذهب إلى منطقة أناسيس Annesis، لأنه ذكر فى كتابه "عن حياة ماكرينا"، انه لم يذهب هناك ما بين عام ٣٧٢و ٣٨٠ واضح مما جاء فى بعض رسائله أنه إلتجأ إلى بعض أصدقائه ويرى البعض انه ذهب إلى سيلوكية[٢٤]. من الملاحظ أنه فى هذه الفترة بدأ ينشغل بأفكار أخيه باسيليوس الخاصة بالاصلاح الروحى. بدأ يساعد أخاه فى تأسيس الرهبنة فى كبادوكية، وفى النهاية كتب مقاله "عن البتولية". كتبها كإنسان سبق له الزواج وارتبط بزوجته فى علاقة مقدسة ومحبة روحية؛ لكنه شعر بسمو الحياة البتولية التى خلالها يتفرغ القلب والفكر وكل الطاقات للعبادة والخدمة خارج الإلتزامات الأسرية.

عاش القديس هذه الفترة فى حياة تأملية ودراسة ممتعة للكتاب المقدس، لكن نفسه أيضًا كانت مُرة من جهة شعبه وإيبارشيته،كما لم يتركه الأعداء فى راحة، بل كانوا يتعقبونه من موضع إلى آخر، ويسببون له متاعب جسدية[٢٦].

قدمت لنا رسالته التى وجهها إلى أوتريس Otereius أسقف melitene بشرق كبادوكية على نهر الفرات أو بالقرب منه عم مرارة نفسه، جاء فى مقدمتها:

[رأيت بصورة كاملة الوضوح نفسك الجميلة حقًا، وذلك من خلال عذوبة رسالتك التى كما يقول الإنجيل : "من فضلة القلب" امتلأت عسلاً..

حالنا يشبه أولئك الذين فى ظروف معينة قد أُصيبوا بظمأ لا ينطفئ، فبقدر ما أتذوق لطفك أزداد عطشًا.

إن لم تدرك أن لغتنا ليست تملقًا ولا اطراءًا غير حقيقى ... فإنك لا تصدق ما أقوله: **إن نفع رسالتك صار لعينّى علاجًا طبيًا أوقف ينبوع الدموع الدائم الفيض، وبثبات رجائنا فى دواء صلواتك المقدسة يُشفى مرض نفوسنا حالاً، شفاءًا كاملاً**. بالرغم من أنه فى الوقت الحاضر حالنا هو هكذا: فقد حُرمنا من وجود أُذن صاغية إلينا، كما دُفن الحق فى صمت حتى لا نسحب من يحبوننا بالحق للشركة معنا فى أتعابنا.

عندما نأخذ فى اعتبارنا أن الحرمان مما هو أعز مالدينا هو دخول فى حروب، إذ نحرم من أبنائنا الذين اضطررنا أن نتركهم، ومن أبنائنا المرتبطين بنا جدًا بناموس الحب...[٢٥]]

أظهرت الرسالة انه كان أحيانًا ينتحب الظروف القاسية التى اضطرته إلى اعتزال أبنائه الروحيين الذين سندهم فى حياتهم الروحية بأتعاب وآلام كثيرة، والتى حرمته من كل من هم أعزاء لديه فى بلده: أى من إخوته وأقربائه وأصدقائه، ليعيش بين أعداء خبثاء كانوا ينتقدون كل تصرفاته حتى مظهره وملابسه وحركاته، وجعلوا منها موضوع اتهام.

ذكر فى رساله أنه صار يعيش على الذكريات الجميلة لحياته السابقة التى حُرم منها، حتى بالنسبة لمسكنه ومسوحه، وكان يقارنها بحاله حيث اضطر أن يسكن فى جحر خانق مظلم وبارد. وكانت تعزيته الأولى هى صلوات إخوته لأجله.

وجاء فى ختام رسالته: [على هذا الأساس اجتمعوا معًا لمحاربتنا، رجلاىّ برجل، ومدينة بمدينة، حتى فى كل الأماكن النائية تمامًا. ولكن إن

سندتنا معونتك دائمًا بنعمة اللّه، فإننا نحتمل فيض المضايقات على رجاء مشاركتكم صلاحكم. لهذا ليتكم لا تتوقفون عن منحنا مثل هذه المنافع التى بها ننتعش، وتعدون لأنفسكم قياسًا متسعًا لنوال المكافأة التى وُعد بها من يحفظ الوصايا.]

هنا يلزمنا أن نقف قليلاً لندرك أنه حتى العظماء من القديسين كانوا يمرون بلحظات ضعف. فإن كان القديس غريغوريوس قد قبل الآلام بشكر، لكنه فى لحظات ضعيفة كان يئن ويصرخ، بل ويشكو إلى صديقه غريغوريوس النزينزى الذى بعث إليه رسائل تعزية تسنده وسط محنته.

للأسف فقُدت رسائله إلى القديس غريغوريوس النزينزى، لكن أمكننا التعرف على ما ورد فيها من خلال إجابات صديقه عليها.

كتب إليه صديقه يقول له إنه وإن كان قد حُرم من تحقيق شهوة قلبه أن يصحبه فى منفاه، لكنه يشعر أنه حاضر معه فى الروح. وأنه واثق فى اللّه أن عاصفة شديدة لابد أن تجتاح الموقف، وأن اللّه يعطيه حتمًا النصرة على مقاوميه، ويسنده بسبب استقامة إيمانه[٢٦].

إذ كان يهرب من موضع إلى آخر شبَّه نفسه بقصبة على سطح مجرى المياه تتحرك من هنا وهناك بلا هدف. أما القديس غريغوريوس النزينزى فأجابه بأن تحركاته فى الواقع كشبه الشمس التى تبعث الحياة لكل من حولها أو كالكواكب التىتتحرك بقانون ثابت[٢٧].

بمعنى آخر بينما كان القديس غريغوريوس أسقف نيصص فى وسط آلامه يحسب هروبه مضيعة للوقت، وخسارة وحرمانًا من الخدمه، إذا بصديقه يرى يد اللّه الحكيمة التى تحوّل حتى ما نحسبه خسارة نفعًا. وأن ما يحل بنا من متاعب هو بسماح إلهى لبنيان أنفسنا والكنيسة. وكأننا فى يديه كالكواكب المنيرة التى يحركها بخطه إلهية فائقة.

إذ كان صديقه في ثقه كاملة أن اللّه لابد أن يحطم الهرطقة الأريوسية أمر صديقه أن يحيا بفرح وبهجة، مؤكدًا له أن أعداء الحق أشبه بالحيات التي تخرج من جحرها في وسط الظهيرة معتمدين على السلطان الإمبراطوري المساند لهم، وبالرغم من حفيفهم المستمر، لكنهم في الوقت المناسب يعودون إلى جحورهم ويظهر الحق. هذا يتحقق إن تركنا الأمر في يد اللّه[28].

لقد تحققت كلمات القديس غريغوريوس النزينزي [29]، إذ لم يمضِ عامان حتى مات الإمبراطور الأريوسي فالنس Valens ٣٧٨م، وتولى الإمبراطور جراتيان Gratian– صديق القديس أمبروسيوس وتلميذه [30] الحكم، فأصدر أمره بعودة الأساقفة المنفيين والمُستبعدين من كراسيهم.

في رسالة [31] ربما كتبها لأخيه القديس باسيليوس وصف استقبال الشعب له. كان الشعب يخرج من القرى ليستقبلوه بكل حفاوة كغالب ومنتصر؛ كانوا يهتفون ويهللون، وكانت دموع الفرح تنهمر من عيونهم.

قبل وصوله إلى نيصص هطلت أمطار غزيرة جعلت كثيرين يلتزمون بالبقاء في منازلهم، لكن ما أن سمعوا بأن مركبته قد بلغت الطريق حتى تجمهر الكل حوله، حتى ساخت نفسه من الازدحام الشديد. كما شاهد بجوار الكنيسة أشبه بنهر من النار، وذلك من كثرة المشاعل التي حملتها العذارى القديسات أمامه.

نياحة أخيه

لم يدم فرح الشعب كثيرًا، ففي أول يناير سنة ٣٧٩م تنيح القديس باسيليوس، فتأثر جدًا، إذ كان يتطلع إليه كأب ومعلم.

إن لم يكن قد حضر لحظات نياحته فعلى الأقل حضر صلاة الجناز، وألقى كلمة؛ ونحن مدينون لها فى معرفتنا الكثير عن حياة القديس باسيليوس[٣٢].

لم يستطع صديقه غريغوريوس النزينزى أن يشترك فى الجنازة بسبب ثقل مرضه، فبعث رساله عزاء وامتدح فيها القديس غريغوريوس باطراء، وقال فيها إن عزاءه الرئيسى أنه يرى كل فضائل باسيليوس منعكسة على حياته كما في مرآة[٣٣].

شعر القديس غريغوريوس أسقف نيصص بالإلتزام أن يضاعف جهده ليكمل رسالة أخيه من جهة نشاطه الرعوى وعمله اللاهوتى وتنظيم الحركة الرهبانية.

شهرته اللاهوتية

نال القديس شهرة فائقة بسبب كتاباته اللاهوتية، فاشترك فى مجامع كثيرة لحل مشاكل لاهوتية.

أصدر ثيؤدوسيوس الكبير قرارًا بتعيين القديس غريغوريوس أسقفًا مركزيًا لكل إيبارشية بُنطس، هذا القرار يعنى أنه وإن كان مركزه الكنسى ليس بذى أهمية لكنه صار المشير الموثوق فيه للحكومة، له الكلمة الأخيرة فى استبعاد الأريوسيين واقامة أساقفة جدد يتبعون الإيمان النيقوى[٣٤].

فى سبتمر سنة ٣٧٩م اشترك فى مجمع أنطاكية الذى انعقد لغرض مزدوج:

١- الإنقسام الأنطاكى، الذى لم يستطع المجمع معالجته.
٢- تأكيد الغلبة على الأريوسية.

فى رجوعه من المجمع وقف فى أناسيس ليلتقى مع أخته ماكرينا فى الساعات الأخيرة من حياتها على الأرض.

سجل القديس سيرة أخته منذ ميلادها، بل وقبل ميلادها، فى شئ من التفصيل فى رسالة بعث بها إلى الراهب أولمبيوس[٣٥] Olympius. كما قدم مقالاً عن النفس والقيامة[٣٦] قدمه تكريما لأخته. كما قدم عرضًا للحظات نياحتها وهى على سرير الموت، حيث قدم حوارًا نسبه إليها، موضوعه حزنه الشديد على نياحة أخيه باسيليوس، وكيف حولت أخته حزنه إلى حديث ممتع عن السمويات.

فى قصة حياة أخته ماكرينا التى كتبها، جاء على لسانها أنها قالت بان شهرته قد انتشرت وتألقت، فصار اسمه يتردد فى المدن والكنائس وبين الأمم وكانت "الكنائس تدعوه وترسل إليه ليقف بجوارها فى جهادها ولتنظيمها [٣٧]"

عاد إلى إيبارشيته ليجد بعض الهراطقة جاءوا من غلاطية إلى نيصص ينشرون هرطقه "أتباع أنوميوس [٣٨]". فى الأحد الأول بعد أول يناير ٣٨٠م ألقى عظة عن هذه الكارثة[٣٩].

فى نفس العام دُعى إلى ايبورا Iborna فى أرمينيا الصغرى Armenia Minor بالقرب من أناسيس لمناسبة اختيار أسقف جديد لها [٤٠]. هناك التقى بمندوبين قادمين من سبسطية يستعرضون صراعًا داخليًا [٤١]. وجد نفسه وسط حرب دينية بين أريوسيين وسابليين وأتباع نيقية[٤٢].

فى عيد القيامة لعام ٣٨٠م رجع إلى نيصص حيث ألقى ثلاث عظات قصيرة عن القيامة [٤٣] والصعود[٤٤] والعنصرية[٤٥]، كما كتب رسالة إلى أخيه بطرس أسقف سبسطية.

فى عام ٣٨١م اشترك فى مجمع القسطنطينية المسكونى، حيث كان له دوره الفعّال. قدم عظة فى افتتاح المجمع "على سيامته ON His

Ordination"، وإن كان البعض يشك في إلقائها فى المجمع. هنــاك اتجهت إليه الأنظار كأحد قادة الكنيسة العظماء فى الشرق.

حمّلـه المجمـع مسئولية بعض البـلاد، وجعلـه حكمًا مـع أوتريـوس Otreius وهيلاديوس Helladius على كبادوكيا وبنطس.

أُرسل إلى العربية للمصالحة بين أسقفين اختلفا بخصــوص إيبارشية البصرة، وكانت هرطقة انكار دوام بتولية العذراء Antidicomarianite قد بلغت القمة.

وفى عودته من العربية زار أورشليم والأراضى المقدســة، وإذ رأى بعض الزوار يسيئون التصرف هناك كتب رســالة شديدة اللهجة فـى هذا الشأن [٤٦]. هناك أُتهـم بالأبوليناريـة التـى تنكـر كمـال ناسـوت المسيح، إذ تحسبه يحمـل جسدًا بدون نفس بشرية؛ فكتب رسـالة يدافـع فيهـا عـن نفسه[٤٧].

فى نهاية عام ٣٨١ رجع إلى نيصص، وفى الشتاء التالى كتب ضـد هرطقة أبوليناريوس، وأيضًا ضد أنوميوس.

عـاد إلــى العاصمــة فــى مناسـبات كثيرة منهــا أن الإمـبراطور ثيؤدوسيوس يدعو لعقد مجمع سنوى فى القسطنطينية، وفى المجمــع الـذى عُقد فـى ربيـع ٣٨٣م ألقـى القديـس عظـة عـن لاهـوت الإبــن والـروح القدس[٤٨].

فى عام ٣٨٥م أُختير ليلقى كلمة رثاء فـى جنـازة الأمـيرة الصغيرة بلخاريـا Pulcheria، وبعد قليـل قـام بنفس العمــل بالنسـبة للإمـبراطورة Flacilla فى القسطنطينية.

وواجه القديس متاعب كثيرة من هيلاديوس أسقف قيصرية مما دفعه إلى تكريس حياته إلى التأمل والدراسة حتى تنيح.

روى هذه المتاعب فى رسالته إلى الأسقف فلافيان[٤٩] Flavian، التى افتتحها بقوله:

[حسنًا إنك تسأل: مما أشكو؟

لقد زال التقوى من العالم تمامًا،

هرب الحق من وسطنا،

أما عن السلام فقد أعيتد أن يُردد اسمه على شفاة الناس فى كل المناسبات، أما الأن فقد زال السلام، حتى الاسم الذى يعبر عنه لم نعد نذكره.]

روى كيف رفض الاستماع إلى من أبلغوه بان كل الاحترام هيلاديوس يحمل له مشاعر عدائية، وأنه أرسل إليه شخصيًا رسالة كما لكثيرين مما يستطيعوا أن يحققوا السلام. ذهب إليه راكبًا على حصان فى الليل، وقطع رحلة تبلغ الخمسين ميلاً، وقد رفض هيلاديوس الترحيب به... وأخيرًا فى نهاية الرسالة أعلن أنه يترك الأمر للّه نفسه.

آخر مرة ظهر فيها فى القسطنطينية عام ٣٩٤ حيث اشترك فى مجمع هناك، غالبًا ما تنيح فى نفس العام.

+++

1. Nicene & Post-Nicene Fathers, Second Series, Vol. 5, P. 1.
2. Ibid 1, 2.
3. Ep. 13:4 ad Liban.
4. Orat. in XL mart. PG 46:776 .
5. De Hom. Opif. PG 44:125 B.
6. De virginitate, Praef. PG46:320; CF. Hans Von Campenhausen: The Fathers of the Greek Church, London 1963, P.116-117.
7. N.P. Frs., P2.
8. Stanley M.Burgess , P.144
9. Greg. Naz. :Ep. 11 ad Greg.
10. Virginity, ch3. PG 46:32 A,B.
11. Ep. 197. PG 37:324.
12. De Virgintate, ch. 3.
ترجمة أحد الآباء بدير السريان: الناشر مكتبة مدارس التربية الكنسية بالجيزة ،١٩٦٦ ، ص ٦٢،٦٣.
13. Smith 06 Wace: A Dictionary of Christion Biography, london 1984, vol. 2, P. 762.
14. Hans Van Compenhausen, P.116.
15. I bid 118.
16. Louis Duchesne : Early History of the Christian Church, London 1912, P. 315
17. Ep. 225 385.
18. Ep. 98 259.
19. Ep. 100; 58; 59; 60.
20. Hans Von Compenhausen, P.115.

21. N.P. Frs., P. 5.
22. Smith a Wace, P.763.
23. Ibid 33358.
24. N.P. Frs. , P. 6.
25. Ibid 538.
26. Greg. Naz. Ep 1F2, tom. , P.866.
27. Ibid 34 32, P.798.
28. Ibid 35 33; P. 799.
29. Smith & Wace, P.764.
30. N.P. Frs. , P. 6.
31. Ep. 6 PG 46:1033A-1036B.
32. Smith & Wace, P.764.
33. Greg. Naz. Ep. 37 35; P.799.
34. Hans Von campenhausen , P. 119.
35. De vita S. macrinae Virg.
36. De anima et resurrectione.
37. Hans Von Campenhausen, P. 119.
38. Epistle 19. PG 46:1076C.
39. Against These Who Are Impatient in Suffering. PG 46 :308-316.
40. Ep.19. PG 46:1076C.
41. Ep. 19. PG 46 :1076D -1077A.
42. Ep. 19 PG 46 :1077 A-B.
43. Gregory's Fourth Sermon on Easter, PG 46: 681-684.
44. Sermon on the Ascension. PG 46: 689-693.
45. Sermon on the Holy Spirit. PG 46:696-701.
46. Ep. 3. PG 46 :1016 B-C.
47. Ep. 3. PG 46 : 1016 -1024.
48. PG 46 : 553-576.
49. N.P. Frs. , P. 545ff.